

لغة العربية المعاصرة

تميم البرغوثي نحارب أقوياء إمبراطورية في التاريخ

تميم البرغوثي *

كتبْتُ هذه القصيدة معارضة لكل من قصيدة الإمام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري المعروفة بـ«الكواكب الدرزية» في مدح خير البرية، أو البردة، وقصيدة أحمد شوقي التي عارض فيها قصيدة البوصيري وأسماها «نهج البردة». والمعارضة تحية من اللاحق للسابق. ولأنها نص يعتمد في جزء من معناه على الأقل، على نص سابق له، فلا يكتمل معناه إلا بمعرفة القارئ للنص الأول، ثم هي مخاطرة لأن كتابتها، في زمننا هذا، ربما تشكل تحدياً لمنهجين سائدين في الثقافة العربية، تكون عند أولهما تمزجاً على الحدائث، وعند الثاني تجرؤاً على التراث. لذلك ربما احتجت في كتابتها إلى توضيح السياق. ولد الإمام شرف دين محمد بن سعيد البوصيري في مارس 1213 وتوفي في 1295، وأصله من صنهاجة، من أمازيغ المغرب، إلا أن أسرته انتقلت إلى مصر، فعاش فيها عمره. بعد شهر من ولادته، كان البابا أوتونت الثالث في روما يدعو للحملة الصليبية الخامسة. في هذه الحملة التي بدأت والبوصيري وليد، سيهاجم ملك المجر وأمراء ألمانيا طبرية من عكا، ثم يهاجم الصليبيون بقيادة مبعوث البابا دمياط في 1218 ويحتلونها، وتبقى الحرب دائرة بين الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، أي ابن أخ صلاح الدين الأيوبي، وبينهم حتى عام 1221 وعمر البوصيري 8 سنوات. وكان عمره 15 سنة حين قرر الملك الكامل أن يتحول من بطل حرب إلى بطل سلام، ويستثمر انتصاره ليخون، فيهدى القدس بلا ثمن لصديقه فردريك فون هوهنستاوفن، أعلى ملوك أوروبا شأنًا، الملقب بالإمبراطور الروماني المقدس، لتشكل قواته في فلسطين حاجزاً بين الكامل في القاهرة وأخيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وسائر الشام، وبقيت القدس التي حررها صلاح الدين في يد الفرنجة 15 عاماً أخرى. وحين يستعيدها المسلمون الخوارزميون القادمون من شرق إيران عام 1244 سيكون البوصيري قد بلغ الـ 31، قريباً من عمري أنا اليوم. وعام 1258 سيشهد البوصيري سقوط بغداد في يد المغول، وستأتيه أخبار مذبحه لم يعرف أهلها لها مثيلاً قبلها، فقد كان المعتاد أن الغزاة يتركون المدن التي يجتاحونها عرضة للنهب ثلاثة أيام، أما المغول فقد أباحوا دماء البغداديين أربعين يوماً، حتى اضطر الأحياء من أهل البلد إلى الاختباء في المقابر وقنوات الصرف وسراديب البيوت، وترواحت تقديرات المؤرخين لأعداد القتلى سواء بسيف المغول أو بإحراق دورهم عليهم أو بالجوع بين عشرات الآلاف إلى مئات الآلاف. ولم يكن العرب من أهل العراق شهدوا مذبحاً بهذا الحجم من قبل، وإن كان مقدراً لهم أن يروا أنشع منها حين تسقط بغداد في يد الأميركيين بعد زمن البوصيري بسبعمة وخمس وأربعين سنة. وتوالت المذابح من العراق إلى الشام، وسقطت حلب ودمشق، غزاها تحالف من المغول والأرمن وصلبيبي أنطاكية، ثم توجه الغزاة نحو مصر.

لكن الله من على البوصيري، فعاش حتى انكسر المغول في عين جالوت، ثم انكسر الصليبيون في أنطاكية على يد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، ثم طردوا من بلادنا حين دخل الملك الأشرف خليل بن قلاوون عكا عام 1291 والبوصيري شيخ في الثامنة والسبعين.

نحن لا نعلم على وجه اليقين في أي سنة بالضبط كتب محمد بن سعيد البوصيري برده، لكننا نعلم أن أحمد شوقي كتب «نهج البردة» في تسعينيات القرن التاسع عشر، بعد احتلال مصر، وقبل انهيار الخلافة. لا يجوز لي الكلام عن نفسي في هذا المقام. لكن يجوز لي الكلام عن زمني. فقد ولدت عام 1977 في العام الذي قرر فيه بطل الحرب المصري أن يكون بطل السلام، ويعترف للغزاة الإسرائيلييين بحقهم في بلادي. وحين كان يخطب أنور السادات في الكنيسة الإسرائيلية في القدس ويرحب عملياً بسفير إسرائيلي في القاهرة، كان رجال أمنه يطلبون من أبي الفلسطيني مغادرتها إلى منفى سيمتد 17 عاماً. وحين كان عمري عاماً، اجتاحت إسرائيل لبنان، واجتاحته مرة أخرى وارتكبت مذبحه صبرا وشاتيلا بحق الفلسطينيين عام 1982 حين كنت في الخامسة. وفي 1991 حين كنت في الرابعة عشرة، حارب الأميركيون العراق للمرة الأولى وقتلوا مئة وخمسة وثمانين ألف نفس من العراقيين، وقرضوا عليهم حصاراً استمر 12 عاماً، ربما كان أطول حصار شامل في التاريخ، مات بسببه أكثر من مليون نفس، أكثر من نصفهم من الأطفال بحسب «منظمة الأمم المتحدة للطفولة». ولما انقضت أعوام الحصار الإثنا عشر، اجتاحت الولايات المتحدة العراق عام 2003 ما كلف العراقيين حرباً أهلية وموت مليون نفس آخرين. وبينما كان الرئيس المصري محمد حسني مبارك يرحب بحاملات الطائرات الأميركية المارة من قناة السويس، كان رجال أمنه يخبرونني أنني غير مرحب بي في القاهرة.

كانت إسرائيل قد أعادت اجتياح الضفة الغربية لنهر الأردن قبلها بعام، ورام الله، بلد أبي، اجتيحت وحوصر فيها بعض أهلي، لكن لم يكن شيء يشبه ما جرى في العراق. علم العراق الأمة كلها أن الحزن ترف، وأن الرضا بالطغاة ترف، وأن الحروب الأهلية ترف، وأن الفتنة الطائفية ترف، عدونا أقوى إمبراطورية في العالم، فإما أن تكون لمقاومتها أولوية على كل شيء، وإما الموت العمم. لكن الله لا يستقبل من رحمته. في عام 2006، انتصرت حفنة من المقاتلين في جبال لبنان الجنوبية على إسرائيل، وفي العام نفسه كان بادياً أن الأميركيين لن

في 2006 انتصرت حفنة من المقاتلين في جبال لبنان على إسرائيل وكان واضحاً أن عقاباً سيصيب حكامنا المتواطئين

قررت الالتزام بكل قواعد المعارضة التراثية دون أن تكون القصيدة نفسها تقليداً للتراث

يستطيعوا البقاء في العراق طويلاً، وكان واضحاً أن عقاباً ما سيصيب حكامنا المتواطئين. غير أنني لم أكتشف هذا التشابه بين الأزمنة الثلاثة إلا أثناء كتابتي للقصيدة. وقد قيل إن الإمام شرف الدين البوصيري أصيب بفالج، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام يلف عليه بُردته، أي عباءته، فقام من المنام بارئاً، وكتب قصيدته وأسماها «الكواكب الدرزية» في مدح خير البرية، فسماها الناس «البردة». وأنا لست أهلاً للمعجزات، لكن يمكن للمرء أن يرى التاريخ كله معجزة إذا أراد، كما كان صلاح جاهين يرى الإعجاز حتى في شروق الشمس وغروبها. أذكر أنني أكملت أول نسخة من القصيدة وحفظتها، وأنني كنت أكتب بخط اليد نسخة منها وأنا في غرفة

انتظار «مستشفى جورجتاون» في واشنطن أنتظر خروج الوالدة من جراحاتها الأولى (تلتها بعد ذلك ثلاث جراحات أخرى)، وللمصادفة، فقد أجريت هذه العملية يوم 17 ديسمبر 2010 يوم بداية الثورة التونسية. وقد أجريت لوالدتي العملية الأخيرة يوم 13 فبراير 2011 بعد يومين من انتصار الثورة المصرية. خرجت الوالدة إلى البيت بصحة جيدة والحمد لله. كذلك، فإن الثورات التي قامت كانت برعاً للأمة من علتها. وهذه البردة دعاء، ولم أكن أظن أن دعاء مثلي يستجاب، وقد أصبْتُ من الدنيا ما أصبْتُ، لكن رحمة ربك واسعة، وفي هذه الأمة من الأمهات والآباء والأطفال من تكفي طهارة قلوبهم ليستجاب دعاءهم، سواء دعوا بالصوت أم بالصمت، كأن هناك مظاهرة مليونية من الإذعية، تكفي ليندس بينها دعائي قليل الجدارة، فتغمره بكرمها، أن «أهلاً وسهلاً ومرحباً أنت في أهلك وناسك».

لا بد هنا من الإشارة إلى مستوى ثالث من المعنى، يتجاوز التجربة السياسية التاريخية والتجربة الروحية الفردية. كل الحروب والقضايا بل اللغات والحضارات ستفنى، كما فنيت حضارات وديانات ولغات من قبل، وربما يكون ما نصوت من أجله اليوم مثاراً للضحك عند أحفادنا بعد ألف سنة أو ألفين. لكن ما سيبقى مثاراً للإعجاب هو سعينا العنيد هذا لأن نحيا، وأن نحيا بكرامة وقدر من الجمال. إن التاريخ يكتب معنى حين يتحول إلى مثل يُضْرَب، ونموذج يُحْتَذَى، وإمام يتبع، وقصة تُتلى وقصيدة تُسمع. يصبح السعي نفسه مثلاً مسعياً إليه. المثال، الشعر، الصورة تصبح مرآة للبشر تظهرهم أجمل مما هم، وتدعو واقعهم إلى أن يصبح بجمال خيالهم. إن القصيدة التي تصوّر الصراع، تمنحه معنى، وإن عمليات عسكرية جرت منذ آلاف السنين في ساحل آسيا الصغرى، لن يبقى منها بعد أن تتغير اللغات والأديان والهويات والخرائط، إلا الإلياذة، لأن

الإلياذة ترفع تلك الكومة المشعثة من الأحداث إلى معنى ما يُعِين اللاحقين على تَشَعُّت حياتهم. ثم إن الشاعر لم يضيف الإلياذة إلى التاريخ، بل نقب التاريخ عنها، كانت الإلياذة هناك بين أقدام الجنود، قشر عنها السياسة فبقي لُثها. نعم إن الناس «يتقاتلون على الثريد الأغر» كما كان الحسن البصري يقول في أهل الفتنة الكبرى، ولكنهم في قتالهم، وتحت غبار المعارك، يكتبون نصاً ما، قصيدة ما، سواء علموا أم لم يعلموا، يسعون لجمال ما، لبلابة ما، لدرجة من الاختيار والحرية يهزمون بها اضطرابات الحياة والموت. والمدح النبوي هو من هذا الباب، بحث عن السماء في الأرض، عن الجليل في اليومي، عن الإلهي في البشري، عن الشعر في النثر، عن الجمال في الصعوبة، عن الباقي في العابر، عن النبوة في الناس، وعن المعنى في التاريخ.

إنني في هذه القصيدة أخرج خروجاً صريحاً على مدرسة في الشعر العربي ترى التراث عبثاً عليها بدلاً من أن يكون سنداً لها، وهي مدرسة تقابل في الآداب الحديثة التي بناها الاستعمار في السياسة. وإن تقنيات المعارضة والتخميس والتشظير وغيرها من الفنون التي وسمها بعض الحدائث بفنون عصر الانحدار، تتيح للمرء من أساليب المحاور والصدى ما شاء. ولذلك، فقد قررت الالتزام بكل قواعد المعارضة التراثية، دون أن تكون القصيدة نفسها تقليداً للتراث. ولا أحد حرجاً في هذه المقدمة من الكلام عن بعض التقنيات كعدد الأبيات أو اختيار القافية مثلاً، فالشكل عندي كلمة في جملة المضمون لا يستقيم بدونه.

ولما كان من أعراف المعارضة زيادة الشاعر اللاحق في عدد الأبيات عن الشاعر السابق، ولما كانت أبيات البوصيري مئة وستين، وزاد شوقي أبيات النهج إلى 190، فإنني أتممتها مئتين، وغيرت القافية من الميم إلى الـدال، لأن في معنى القصيدة بعض الانقلاب عن معاني سابقتها، فأحببت أن يرادف ذلك انقلاب في الشكل، فيكون صدر بيت القصيدة الأشهر: «مولاي صل وسلم دائماً أبداً... على حبيبك خير الخلق كلهم»، هو عجز البيت الذي يبدأ به المدح في هذه القصيدة.

وقد سمعها مني مصطفى سعيد، وأحب أن يلحنها فأحببت ذلك. تعرفنا في سياق الثورة في مصر، وغنى قصيدة لي في اعتصام ميدان التحرير الأصلي في الأيام الثمانية عشرة التي أطاحت بمبارك، واكتشفنا أن مشروعي في الموسيقى والشعر والنظرة إلى التراث والتحديث واحد. ومن الغرب الحسن أن مصطفى من أحفاد السيد البدوي، والملقب بشيخ العرب، وذي اللثامين، فهو سليل مشايخ الطريقة الأحمدية الخلوتية وكان مقدم أجداده من المغرب إلى مصر في القرن الثالث عشر، تماماً كما كان مقدم أسرة البوصيري، وكما كانت عودة أجدادي الكنانيين، ومن مناهم المغربي أوائل العهد الأيوبي إلى مصر ثم إلى جبال بني زيد في شرق فلسطين.

* مقتطفات من المقدمة التي كتبها الشاعر الفلسطيني تعريفاً بمشروعه.

